مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة فى أمر يسير صغير ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة فى أمر كبير . إذن . فمرة تأتى المبالغة فى تكرير الفعل ، وأخرى فى تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن » ؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرجه الله عن دائرة الستر إلاّ إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا عرفت فى رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد فى السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ، والإثم أفظع المعاصى . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكى يحكم له الرسول ضد اليهودى ، لماذا صنعوا ذلك ؟. لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويبرأ يهودى ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتى بالحيثية التى دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقضى على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس فى أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟. إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعمية فى قضاء الأرض فلن تعموا على قضاء السماء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يغضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسى أو فضحت ولدى أو فضحت أسرتى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردهُ عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك فأنت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تجعل المؤمن مصدقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان فى الخلوة والجلوة والسر والعلن . فإن قدر واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يقدر على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » و« يبيت » أى أنه يفعل أمره فى الليل ؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم فى الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصنع مكيدة فى البيت ليلا ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبييت » حتى ولو كان فى وضح النهار ، ولا يبيت إنسان فى خفاء إلا رغبة منه فى أن ينفض عنه عيون الرائين . فنقول له : أنت تنفض العيون التى مثلك ، لكن العيون الأزلية وهى عيون الحق فلن تقدر عليها .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

( سورة النساء )

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه مآلا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شىء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن

الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من مآله شيء من الجزاء الحق .

ويعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

فالذى جادل عن ابن أبيرق كان يريد أن يبرىء ساحته أمام الناس ويدين اليهودى ، وفى أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهى المسألة بهذا اليسر ؟ لا ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أيفلت من عقوبة الله فى الآخرة ؟ لا ، إذن فالذى يجادل يريد أن يعمى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعمى على قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق يذيل الآية : « أم من يكون عليهم وكيلاً » أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذى يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أغيار ، لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة للمذنب حماية للمجتمع من استشراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا فى محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم فى باله أن يبرىء « ابن أبيرق » ، وقسم فى باله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ . لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله غفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يبقيهم فى الصف الإيمانى ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودى ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لعادة الخيانة ، فنقب حائطا على رجل ليسرق متاعه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فيتساءلون : أليس الذى ارتكب العمل السيىء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ؛ فمعنى عمل سوءًا أضرّ بهذا العمل آخرين ، إنّه غير الذى ارتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط ؛ فالذى سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأعمال هى ارتكاب للسوء ؛ فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أى يلقى الناس بما يكرهون .

لكن الذى يشرب الخمر قد يكون فى عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحمى المسلم حق من نفسه ، ويحمى النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حماية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات ؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمى نفسه . فإن صنع سوءا أى أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء » . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟ . إنه إساءة لغيره أيضا ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذى يسىء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة . وقد تجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذى يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنيا غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بادروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا »[1] .

« ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور ورحيم أزلاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خَيِّرًا فعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيىء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية فى الإنسان لا يستحى منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحى منها الإنسان ؛ لذلك يجب أن يقوم بها فى خفية ، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - ولله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الحلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » . .

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الالتفات ؛ فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويعزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذى سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية ففى ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور فى أعماقه ، وهو يختلف عن ذلك الذى تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن على عدوه أن يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح - ولله المثل الأعلى دائماً - هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئا يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فأين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يقف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويعيش الظالم فى حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .

ومن ضمن المفارقات التى تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف أغتاب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والديك أولى بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطى حسناتك لعدوك ، ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هى : لا تكن أيها المغتاب أحمق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعدوك حسناتك وهى نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصرى ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه . فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اغتبته بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك أثمن من هذا الرطب . وفى هذا إيضاح كاف لذم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ « كان » فإياكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث فى زمن ماضٍ ، ولكن لنقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم ؛ فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له ؛ لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار . ومادام الله هو الذى يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيماً ، ولايزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قالوا : إن الخطيئة هى الشىء غير المتعمَّد ، مثال ذلك حين نعلِّم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسى القاعدة ولم يستحضرها . ونظل نصحح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطىء .

والخطيئة ـ إذن ـ هى الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمَّد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله فى ذلك ؟

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

( سورة النساء )

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، ويا ليته اكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إنَّ إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حمل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشىء الثقيل ؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها ببرىء ، إذن فهى حمل على أكتافه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سُعار العداوة ؛ يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يهدأ سعار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

( سورة المائدة )

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يتقبل القربان وليس أنا فلماذا تقتلنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة )

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

( سورة المائدة )

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شىء وقت الجريمة ، وبعد أن وقعت ، وهدأ سعار الغضب الذى ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم ناصعة فى النفس .

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ، وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البرىء بالإثم إنما يرتكب عملاً يتطلب مشقة وتتنازعه نفسه مرة بالندم ؛ لأنه فعل الجريمة ، وتتنازعه نفسه مرة ثانية لأنه رمى بريئاً بالجريمة ؛ لذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » وساعة

نسمع كلمة « بهتان » فهى مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذى يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق فى شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )

فماذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )

أى أنه سمع شيئاً عجيباً يخرسه عن أن يتكلم ؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفراً ، فكان الأمور المخالفة لمنطق الحق ولمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنّها هى البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التى نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرىء نفسه وأن يُدخل فى الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمِّله إثماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شىء إلا إذا كان هذا الشىء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإنّ فى الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصعاً ؛ فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لسعاه . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التى تبهته ولا يدخل فيها هذا التماحك اللفظى . فقال :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عَدّى ذلك إلى أن يحمله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثمَ أيضاً .

. والإثم ـ كما عرفنا ـ هو السيئة المتعمَّدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليلى الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزينوا لك أن تبرىء مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البرىء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاقهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التى جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك فى قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلّمه حبيبه أسامة بن زيد فى أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : مَنْ يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرؤ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »[1] .

---

( ١ ) رواه مسلم .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

وهنا نتساءل : هل هَمَّ أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن « الهَمّ » نوعان : هم إنفاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتى بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضا . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضي به من بعد ذلك فى كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليما .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

( من الآية ١١٣ سورة النساء )

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ المذنب الذى يعلم أنه مذنب لاسْتقرّ فى ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البريء الذى كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فَهَمُّ التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضا .

﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

( من الآية ١١٣ سورة النساء )

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل فى القضية . ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن ما يبين سر نزول القرآن منجماً ؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذى ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتى الحكم . وقد سبق أن قال الكفار :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الفرقان )

لا ؛ فقد أراد الله القرآن منجماً ومتفرقاً ومُقَسَّطاً لماذا ؟

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الفرقان )

فكلما حدثت هزة للفؤاد من اللَّدَد والخصومة الشديدة ومن العناد الذى كان عليه الكفار وردّهم للحق ـ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ينزل نجم من القرآن ، وفى شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تُثَبِّت الفؤاد ؛ فإن تعب الفؤاد من شغب الناس ؛ فآيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحى تنفى عنه هذه المتاعب . ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ؛ لذلك كان فى كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآنى بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآنى تُهَوِّنُ عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو ينتظر حلاوة الوحى لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الفرقان )

أى أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحى عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرهقه الوحى ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد »[1] .

ورأته خديجة ـ رضى الله عنها ـ « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكيته ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشريته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائيا فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا »[2] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحى أن يحس محمد حلاوة الوحى الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحى عندما يجىء ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيرا ؛ لأن الحق قال :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ ﴾

( سورة الضحى )

أى أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقا وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

---

( ١ ) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

( ٢ ) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الفرقان )

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كُتَّابُ الوحى ، وبعد ذلك تأتى معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرى عنه يقول للكتبة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة فى الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذى تكون فيه كل آية فى موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

وإلا فقولوا لى : كيف ينزل الوحى على رسول الله بسورة بأكملها ويمليها للكتبة ، ثم يقرؤها فى الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

( سورة الفرقان )

أى لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها .

إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التى يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التى استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذى ينزل به القرآن فيقرأه الرسول فى الصلاة مثلما نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾

( سورة الأعلى )

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فإذا ما علمك الله ـ يا رسول الله ـ ما لم تكن تعلم بنزول الكتاب ، فهل أنت يا سيدى يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ؛ فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيمانى ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرّع ؛ وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

( من الآية ٧ سورة الحشر )

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه عَلَّمَ رسوله الكتاب والحكمة . والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

( من الآية ٣٤ سورة الأحزاب )

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ولنا أن نلحظ أن « فضل الله » تكرر فى هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول فى هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتنأى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانيا أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهى التفويض من الله لرسوله أن يشرّع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك فى حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت فى القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدى الصلاة أم لا .؟

فيقول : إننى أصلى . .

فنقول له : كم فرضاً تصلى ؟.

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بمثلها ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصلى على ضوء قول الرسول : ( صلوا كما رأيتمونى أصلى )[1] وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات فى أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله فى صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى فى ذيل نفس الآية ؟.

نقول : أنت لم تلحظ فضل الله فى الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظلماً ، وفى الجزئية الثانية هو فضل فى الإتمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول فى أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معا ليتدارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة ؟.

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول ؛ فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أى جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارّة ، والمسارّة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن

( ١ ) رواه البخارى والبيهقى فى السنن الكبرى .

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يفضح الحق أمر هذه النجوى ، فينزل القول الحق :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التى تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا ؛ لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويجزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسنؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطنى الله الجزاء على الطيب فى الدنيا ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : « فسنؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ، وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ؛ لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلا « فسوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يمنى أمته الإيمانية بشىء فهو يمنيها بالآخرة ، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :